

كتابة تاريخ الجزائر المعاصر بين الواقع والتحديات

حسان مغدوري
جامعة زيان عاشور بالجلفة

مقدمة:

يمثل النقد التاريخي عملا مهما في فحص الروايات التاريخية ، لاسيما إذا تعلق الأمر بالتاريخ الوطني ، الذي عرف اهتماما مفرطا من طرف مؤرخي الاستعمار ، الذين صاغوه وقولبوه ، وفق مفاهيم غالبا ما تقوم على التدليس والتلفيق ، وتأخذ في كثير من الأحيان صفة مسلمات ، تنقلها كلمات ومصطلحات في شكل لغة انتقائية ، حيث ومن غير قصد ، يسوقنا مجرد اعتمادها ، إلى تكريس أهداف مدرسة التاريخ الاستعماري ، فابن خلدون كان قد نبه في الماضي إلى هذا الإشكال ، عندما تجرأ على نقد طريقة المؤرخين قبله كالمسعودي والطبري ، والتي أقامها على معنى المغالط ، واثبت أن التاريخ لا يمكن أن يخضع للإنشاء ، وأنه جدير بأن يتميز بالخبر ، ذلك أن قوام الإنشاء الوجدانية المفعمة بالتسليم راضية بالسكينة ، أما الخبر فهو تدقيق ونظر ونقد وتمحيص ، وقدرة العقل على التمييز وحسن الاستنباط ، وقال في هذا الشأن « اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم لفوائد شريف الغاية »⁽¹⁾ وبهذا المعنى فالتاريخ عنده يتضمن معنى النزاهة والشرف .و المشتغل بهذا في الحقل كما يردف قائلا « يحتاج إلى مأخذ متعددة ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وثبت ، يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط »⁽²⁾.

انطلاقا من هذا الإطار الأخلاقي لمفهوم التاريخ ، و المعايير العلمية التي يستند إليها ، تتكشف الصورة الأخلاقية والعلمية التي تخللت حركة كتابة تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر ، وكذا الإشكالات التي لازمت مسار هذه الحركة ، عبر تطور واقع كتابة تاريخ الجزائر ، ونوع الوثائق ومضامينها ، ومحتوى الصحف وتوجهاتها ، وموقع الأدب في المجتمع وأغراضه ، وكذا وضع الأرشيف والتوثيق ومعيقاته ، في محاولة لرسم صورة مختصرة عن معالم السياق التي تندرج ضمنه كتابة تاريخنا الوطني

1- الكتابة التاريخية في الفترة الاستعمارية

1-1- واقعها وتطورها

احتكر الفرنسيون كتابة تاريخ الجزائر خلال العهد الاستعماري؛ فأجبال من المؤرخين الاحترافيين و الهواة ، مدنيين و عسكريين، نقبوا عن ماضينا في اتجاه يخلص في النهاية إلى تحقيق نظرية الجزائر فرنسية»⁽³⁾، و قدموا جملة من الفرضيات و الأطروحات بهدف مراجعة تاريخية شاملة ، خدمة لأفكارهم و تقييما لحوصلة يائسة عن ماضي الجزائر ، بما ينسجم في النهاية بتبرير الغزو لاستعماري⁽⁴⁾.

لقد تناول الفرنسيون دراسة تاريخ الجزائر في كافة العصور ، و في مختلف مجالات الحياة الأساسية ، ولعل العودة إلى الدراسات البيبليوغرافية التي وضعها بعضهم ، تكشف هذه الحقيقة بجلاء، حيث تناولت دراسة «كريستيان كورتوا Courtois Christian» « من روما إلى الإسلام » ، « Islam 'l à Rome De » ، الكتابات الفرنسية عن الحقبة الممتدة من الفترة الرومانية إلى بداية الفتح الإسلامي ، وكانت قد ألفت بالمجال السياسي و الاقتصادي و الاجتماعي ، واستكملت دراسة ويليام مارسيي « Marçais William » التي حملت عنوان «مئة سنة من البحث في ماضي إفريقيا الإسلامية» recherches sur le passé de «l'Afrique musulmane de siècle Un» «الدراسة السابقة؛ حيث انطلقت من الفتح الإسلامي إلى نهاية العهد العثماني ، وختم «جورج إيفير» Yver George « هذا النهج بعنوان غزو و احتلال الجزائر» La conquête et la colonisation de l'Algérie منذ نهاية العهد العثماني إلى سنة 1930 ، وهي المحطة التي تؤشر إلى تاريخ احتفال فرنسا بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر.

و من هنا ، فإن كتابة تاريخ الجزائر قد نشأت وفق هذا المنهج ، ضمن الإطار الجامعي في فرنسا عموما ، ثم انتقلت إلى الجزائر بعدما تأسست المدارس العليا سنة 1879، و التي تحولت لاحقا إلى جامعة الجزائر سنة 1909، والتي تركز نشاطها ضمن العمل الاستشراقي ما بين 1880 و 1905 ، إذ يمكن اعتبار هذه الفترة ، بمثابة العهد الذهبي للمستشرقين الفرنسيين في الجزائر ، سيما وأنها تكللت بانعقاد المؤتمر الرابع عشر للمستشرقين العالميين في ربيع 1905 بمدينة الجزائر و الذي حضره 500 شخص⁽⁵⁾ «فالجزائر قد أصبحت منطلق نشاط الاستشراق الفرنسي مبكرا ،وقد وقعت مخطوطاتها و وثائقها و آثارها بين أيدي المستشرقين ، فتصرفوا فيها تصرف المالك في ملكه ، و ضاعت معهم اليوم ثروة هائلة»⁽⁶⁾.

لقد أخذت هذه الفترة نصيبا معتبرا من التخصص ، ذلك أن الأبحاث كانت تستهدف خدمة الإدارة الاستعمارية من خلال تبرير الوجود الفرنسي ، و كانت مواضيع المعالجة متنوعة بين الدراسات اللغوية ، و اللهجات المحلية و الأبحاث الاجتماعية و الاقتصادية للأهالي و قضايا الاستعمار ،وقد ظل التوجه العام في اختيار مواضيع الأبحاث عند فريق من الباحثين يستند في الأساس إلى الرؤية الاستعمارية ،حيث قدم جوليان فرنك « Julien

لقد مثل تأسيس جامعة الجزائر، حدثاً هاماً في اتجاه الكتابة التاريخية ، حيث حول الاستعمار الفرنسي معاقلة الإيديولوجية إلى الجزائرونقل مشتلة معتبرة من الرواد المدافعين باختلاف التخصصات من رجال القانون ك ميو (Millot) و فيار (Viard) و بوسكي (Bousquet) و لمبار (Lambert) و من المؤرخين ك أ.ق قوتي (Gautier) ، جورج مارسى (Marcais George) و كريستيان كورتوا (Courtois Christian) و جى لو تورنو (Letourneau Roger) ، جابريل كامب (Camps Gabriel) وقائمة طويلة الفلاسفة و اللغويين.

انكب المؤرخون الفرنسيون في البداية ، على دراسة الحقبة التاريخية القديمة و الإسلامية ، تاركين معالجة التاريخ ألقائعي ، و تطور الأحداث المعاصرة داخل الجزائر، لرجال القانون، و علماء الاجتماع ،و الجغرافيين و غيرهم ، ثم عادوا لاحقا ،فاقترحوا دراسة تلك الأحداث انطلاقا من بدايات أصول الغزو الاستعماري (8) ،و مع « الاحتفال بمرور مائة سنة على الاحتلال » تجند هؤلاء المؤرخون و قاموا بوضع دراسات تركيبية عن تاريخ الاستعمار في الجزائر و عن جهود فرنسا الحضارية ، و هذا في ظل نظرة نقدية شاملة لما تحقق في ميدان الكتابة التاريخية (9) ، و هكذا أصبح التاريخ عندهم وسيلة للدعاية من اجل تأكيد حقيقة رسمية لما يسميه محمد شريف ساحلي « أسطورة الجزائر الذهبية » « Legende dorée Algerienne » ، التي تنسجم مع الطرح الذي قدمه « أندري برونو » « Prenant André » و الذي يتضمن اكتشاف أمة جزائرية غير مكتملة في 1830م (10) .

رغم أن مدرسة الجزائر حافظت على مكانتها العلمية ،و أبحاثها في الميدان، إلا أن باريس بقيت تمثل مركزا علميا محوريا ، و إطارا للدراسات و الأبحاث المتخصصة، كرسائل الدكتوراه ، و ذلك المؤرخون المختصون في كتابة تاريخ الجزائر طيلة هذا العهد ، جزائريين بالمولد من أمثال « اكسافيي ياكونو » « Yacono Xavier » و « أندري نوتشي » « Nouschi André » أو الذين قدموا إلى الجزائر و هم في ريعان شبابهم مثل « شارل أندري جوليان » « Julien André Charles » ، أو من كلف بعد 1945 بمهمة تعليمية ، مثلما هو الحال لشارل روبير أجيرون « Charles Robert Ageron » .

بدأت حركة مضادة لكتابة تاريخ الجزائر مع بداية الثلاثينات من القرن الماضي ،وقد عبرت عنها في المرحلة الأولى جمعية العلماء المسلمين ، التي كانت تضم ثلاثة عشر عالما (11) ، فهي قد شعرت بحيوية التاريخ باعتباره وسيلة للدفاع عن الهوية الوطنية ، ففي عشية إحتفال فرنسا بالذكرى المئوية للغزو ، و تزامنا مع تأسيس جمعية العلماء المسلمين سنة 1931 ،ظهرت مجموعة من الأعمال التاريخية النوعية ، على يد الشيخ مبارك الميلي الذي ألف « تاريخ الجزائر في الماضي و الحاضر » ، والذي من خلاله أشار إلى أن التاريخ مرآة الماضي و دليل الحاضر ، و هو حجة وجود الشعوب ، و صوت وحدتها و وعاء جهوده و أكد قائلا « نقوم إذن بطبع هذا الكتاب لفائدة الشعب الجزائري و لشبيبته المفكرة ، و إلى هؤلاء الرجال الذين يناضلون بإخلاص » ، و تعززت الكتابة التاريخية الجزائرية بأعمال توفيق المدني ، الذي كان يتمتع بثقافة مزدوجة ،و التي سمحت له بمعالجة و تحليل كافة الوثائق المتوفرة باللغة الفرنسية بشكل مباشر ، وفتحت بذلك المجال أمام تعميق دراسة الفترة ما قبل الإسلام و إبراز المحطات الكبرى ، سيما المعارضة و المقاومة الباسلة التي أبداها البربر إزاء التوسع الإستعماري الروماني (12) ، و قد مثل ظهور تأليف « كتاب الجزائر » سنة 1932 اتجاها معاكسا للأدبيات الاستعمارية العارمة،

ذلك أن المؤلف انتقد سياسة الإدماج بشكل صريح من خلال محتواه الذي حوّل جملة العناصر للحياة الثقافية والاجتماعية للمرأة المسلمة ، و للموسيقى و المسرح ، و للصحافة العربية و الدين و الجمعيات الثقافية ، كما أثار بعض الإشكاليات الاجتماعية الهامة ، كموضوع التعاطي مع المدارس بما فيها تلك التابعة للإدارة الإستعمارية، وتوجت هذه الحركة بظهور مؤلف عبد الرحمن الجيلالي في طبعته الأولى سنة 1954⁽¹³⁾ « تاريخ الجزائر العام » ، والذي خصّ حيزا معتبرا للفترة العربية الإسلامية ، بهدف توجيه إهتمام المجتمع إلى ماضي الأجداد ، و ربطه بالهوية الوطنية وقد كان يمثل هذا الكتاب جهدا في غاية الأهمية.

هكذا ولأول مرة ، وفرت هذه الأعمال الثلاثة للقراء، كما هائلا من المادة التاريخية ، باللغة العربية مست مختلف مجالات الحياة الاجتماعية و الإقتصادية و الثقافية ، و شكلت جهدا في مسار حركة المقاومة الثقافية وتحد لتيار الكتابة التاريخية الاستعمارية الفرنسية.

لم يكن تيار المثقفين الجزائريين باللغة الفرنسية غائبا عن هذه الحركة الفكرية، فقد ظهرت مقالات فرحات عباس العديدة ، كما ظهرت كتابات بعض المناضلين من حزب الشعب ، كان أبرزهم محمد شريف ساحلي ، الذي كان أستاذا في باريس إلى غاية 1939 ، و كان قد كتب سنة 1947 سلسلة من أعمال المقاومة ، والتي تم حجز بعضها ، من طرف السلطات الاستعمارية ك « رسالة يوغرطة » ونشرت له في سنة 1955 دراسة في مجلات « Les temps modernes » تحت عنوان « الإدماج » « L'assimilation »⁽¹⁴⁾ ، وإستكمل من بعده مصطفى لشرف عضو « حزب الشعب الجزائري » هذا الإتجاه ، عبر مقالاته التي كانت تندرج في نفس السياق.

لقد كانت عناوين هذه المؤلفات ، أكثر رمزية في الدلالة على عنصر القومية الجزائرية ، وطرحا مخالفا للمألوف، بل أن هؤلاء المثقفين باللغة الفرنسية حاولوا اتخاذ موقع بين طبيعة الأعمال التي قدموها ، و مرجعية تعليمهم الذي تلقونه على يد أساتذتهم الفرنسيين ، و مع ذلك لم تسلم هذه الحركة الفتية من انتقادات المؤرخين الفرنسيين ، فقد انتقدها شارل أندري جوليان « Charles » Julien André سنة 1952 و أعاب عليها توجهاتها الأيديولوجية و إسقاطها لعقيدتها السياسية في كتابتها للتاريخ ، على الرغم من أن كافة أعمال مؤرخي المدرسة الاستعمارية تحمل نزعة إيديولوجية و عقيدة إستعمارية صرفة .

1-1 - طبيعة الوثائق التاريخية :

بعيدا عن كتابات المؤرخين الفرنسيين، فإن مصادر كتابة تاريخ الجزائر ، ظلت محكومة بالنهج العام للنظام الاستعماري ، فالوثائق و التقارير لا تقدم معطيات بالقدر الذي يؤرخ لحياة المجتمع الجزائري ، ذلك أنها كانت تنصب في اتجاه يعكس المهمة الأمنية و العسكرية و الاستخباراتية لحركة الاستيطان ، وقد نسوق في هذا الإطار، عينة عن الوثائق التاريخية لتاريخ المقاومة الجزائرية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ميلادي ، و

المستوحاة من أرشيف وزارة الحرب بفن سان «فرنسا» حيث حملت رسالة من الوالي العام المدني للجزائر ، كانت قد وجهت إلى وزير الحرب بباريس بتاريخ 15 أفريل 1881 ، موضوع الأوضاع السياسية بالناحية الوهرانية ، ومنها احتمال اشتراك أولاد سيدي الشيخ في القضاء على بعثة «فلا ترس» ، ثم تقييم نفوذ بوعمامة في المنطقة ⁽¹⁵⁾ ، و تضمنت رسالة أخرى من أرشيف ما وراء البحار أكس آن بروفانس «فرنسا» ، «رسالة من قيادة متليلي إلى حاكم غرداية، بتاريخ 29 ماي 1888 ، توشي بأخبار تحركات بوعمامة للسلطات الفرنسية» ⁽¹⁶⁾ .

تقول د. إيفون تورين « Turin Yvone » « و عودة منا للوثائق الفرنسية فان التقارير الأولى للحروب ما هي إلا عبارة عن وصف لحركة الجيوش و التلاحم و التقدم أو التأخر ، أو الدخول في المفاوضات أو اتصال الرؤساء أو القبائل بحيث لا تقدر جيدا التأثير الحقيقي ؟ ، و من وراء هؤلاء الرؤساء فإننا لا نكاد نتصور إطلاقا البلد و سكانه و عاداته إذ أن ذلك لا يهم كثيرا ⁽¹⁷⁾ ، و من جانب آخر « فالتقارير الرسمية الفرنسية مستوحاة من مصادر استعمارية ، و قد استغلت بطريقة إما تزور أو تلمع الحقائق ، و إما تبرر الأوضاع الاستعمارية ، كما أن هذه الوثائق لا تمدنا بروح الشعب ، حيث يبقى هذا الأخير ينظر له من زاوية خارجية ⁽¹⁸⁾ ، و من ثمة فإن ما كان داخل الحياة الجزائرية ، لم يكن يصل إلى معلومات المستعمر و بقي مجهولا ، و قد لا نجد له أثر في الوثائق .

3-1 - تيار الصحف والجرائد :

ظلت الصحافة منذ الغزو الأول للجزائر، وإلى غاية 1900 ، محتكرة من طرف المعمرين ، فقد اصطحب الغزاة عام 1830 م بعض من رجال الإعلام و الثقافة ، بهدف استخدامهم في مجال اختصاصهم ، و لذلك صدرت أول صحيفة في الجزائر باسم « بريد الجزائر » ⁽¹⁹⁾ ، بصفتها جريدة سياسية ، تاريخية و عسكرية ، و ناطقة رسمية للاستعمار ، و في 27 جانفي 1832 صدرت جريدة « المرشد الجزائري » التي اشتهرت بتوزيع قرارات القيادة العامة الخاصة بمقاطعة الجزائر ، و كانت لغتها عربية ركيكة و تدافع عن احتلال الجزائر ، و في 20 أكتوبر سنة 1934 صدرت صحيفة « النشرة الرسمية لعقود الحكومة » ، و تخصصت في نشر قرارات الوالي العام و مصالح الإدارة ، غير أن هذه الجرائد ، كانت ذات طبيعة وظيفية ، تندرج ضمن تنفيذ مشروع الإحتلال ، و بالتالي فالمادة التي كانت تحملها كانت ذات طبيعة مهنية و تحمل مهمة تنفيذية.

عندما أدركت سلطة الإحتلال ضرورة الإتصال بالمجتمع الجزائري ، استخدمت لغته ، و عمدت إلى إصدار جرائد باللغة العربية ، إذ سرعان ما ظهرت جريدتان حكوميتان « الأخبار » في 1839 ، و « المبشر » في 1847 ⁽²⁰⁾ ، و اللتان أصبحتا بعد 1848 ، مخصصتين لإعادة إنتاج البيانات الموجهة للجزائريين ، و انتعشت في ذات السياق ، صحافة المعمرين بالجزائر متأثرة بتطور الظروف السياسية المحلية ، ففي الجزائر العاصمة وحدها ، صدرت « 12 صحيفة يومية و أسبوعية و مجلات شهرية » ⁽²¹⁾ ، ولم تنشأ منطقتي وهران و قسنطينة ، عن ذلك .

كتاب تاريخ الجزائر المعاصر بين الواقع والتحديات

إذا كانت صحافة المعمرين قد مثلت خطا معارضا لسياسة فرنسا ، من خلال النقد الصريح الذي كانت توجهه ، فإنها لم تكن تدافع إلا عن مكاسبها ، و بالتالي كانت تقف من الأحداث من زاوية موقعها و مصالحها ، و هي لا تحمل إلا انشغالاتها .

لقد سجلت بداية القرن العشرين ميلاد صحافة وطنية جديدة على يد النخبة و المحافظين ، من أمثال العربي فخر مؤسس جريدة « المصباح » ، و صديق دندف مؤسس جريدة « الإسلام » باللغتين العربية و الفرنسية سنة 1912 ، و عمر راسم صاحب الجريدة العربية الشهرية « الجزائر » التي توقفت بعد صدور عديد سنة 1908 ، ثم تجددت سنة 1913 تحت إسم « ذوالفقار »⁽²²⁾ ، إلا أن هذه الجرائد لم تكن سوى تعبيرا عن مواضيع راهنة للمرحلة التي ظهرت فيها ، و من ثمة فهي لم تؤرخ لشعب بقي مهمشا لأكثر من قرن ، و رغم ذلك فقد تعرضت هذه الصحافة الناشئة للخنق بموجب قانون « الأهالي » ، و كانت تتعرض كل صحيفة بعد فترة وجيزة من الظهور إلى المصادرة ، ويخضع أصحابها لعقوبات الإدارة الإستعمارية .

لقد سجلت نهاية الحرب العالمية الأولى ، صدور عدد معتبر من الجرائد باللسانين العربي و الفرنسي ، ففي سنة 1919 أصدر الأمير خالد جريدة « الإقدام » التي توقفت سنة 1925 ، و في قسنطينة أصدر عبد الحفيظ بن الهاشمي « النجاح » بمشاركة ابن باديس غير أنها انحرفت و انفصل عنها هذا الأخير بعد 1930 ، عندما تحولت إلى لسان من السنة الإدارة الإستعمارية ، لذلك استمرت حتى 1954 ، و في 1923 صدرت جريدة « لسان الدين » لمصطفى بن حافظ و ابن عبد العزيز حسن ، و في السنة الموالية ظهرت جريدة « الفاروق » لصاحبها عمر بن قدور ، و لم تستمر طويلا ، و في 1925 صدرت جريدة « المنتقد » للشيخ ابن باديس ، تصدت للإدارة الإستعمارية ومعاونيتها من رجال الطرق الصوفية ، ثم سرعان ما توقفت بعد صدور ثمانية أعداد منها ، وبدلا عنها صدرت « الشهاب » التي استمرت حتى 1939 ، كما عرفت نفس الفترة صدور جريدة « الجزائر » سنة 1925 لمحمد سعيد الزاهري ، و « صدى الصحراء » لمحمد العابد الجيلالي ، و اللتان توقفتا عن الظهور سريعا ، و في سنة 1926 ظهرت جرائد أبو اليقظان « واد ميزاب » ، « المغرب » ، « النور » و « النبراس » و لم تدم إلا فترة قصيرة حيث تعرضت للغلق ، و عن جمعية العلماء ظهرت « السنة الموحدة » سنة 1933 ، ثم توقفت في نفس السنة ، لتظهر عقبها « الشريعة المطهرة » في 17 جويلية 1933 ، و لم تدم سوى شهرا ، حيث خلفتها « الصراط السوي » في 11 ديسمبر 1933 ، و انتهت المرحلة بصور « البصائر » سنة 1935 و لم يتجاوز ظهورها عتبة الحرب العالمية الثانية .

على كثرة صدور هذه الصحف العربية ، في الفترة ما بين 1908 – 1939 ، وقيمتها في حملها لتاريخ مراحل هامة من تاريخنا ، إلا أنها كانت تتعثر و هي في بداية طريقها أمام الرقابة الصارمة التي كان يمثلها القانون الفرنسي ، الذي خول للوالي العام الصلاحيات الكاملة في غلق كل جريدة عربية بواسطة قرار بسيط (23) ، و لا شك أن هذا

الإرتباك و الإنقطاع المفاجئ لهذه الصحف لم يسمح بتبلور مواضيعها و اكتمالها ، ولم يمكنها من تقييد حيثيات أحداث المرحلة التي عاشتها ، بسبب غياب الحرية الفكرية اللازمة ، لمعينة موضوعية و علمية للواقع

استمرت صحف الأحزاب الوطنية في الظهور بعد الحرب العالمية الثانية ، غير أنها تمحورت حول مواجهة الإعلام الإستعماري الذي كانت تمثله صحف « إيكو دالجي » « Alger'd Echo » و « إيكو دورن » « Oran'd Echo » ، و « لاديبيش كوستا نتين » « Constantine de dépêche La » ، و من جهة أخرى ظلت الحركة الإعلامية في الجزائر كمًا متناقضا ، بسبب الصراعات بين التيارات الوطنية و المذهبية .

ظهرت مع الثورة التحريرية سنة 1954 ، صحيفة « المقاومة الجزائرية » ، لجهة التحرير الوطني ، و ابتداء من جوان 1956 ، خلفتها صحيفة « المجاهد » و التي استمرت في الظهور إلى الإستقلال ، وقد كانت اللسان المركزي الوحيد لجهة التحرير الوطني إلى غاية العدد 120 الصادر يوم 30/04/1962⁽²⁴⁾ ، و تناولت « المجاهد » مقالات وتقارير صحفية و تعاليف وتحقيقات وأحاديث ، بالإضافة إلى دراسات و أعمدة صحفية ، غير أن مهمة هذه الصحيفة كانت تنحصر ضمن عمل الدعاية لفائدة الثورة ، من خلال الترويج لأفكار و آراء جبهة التحرير الوطني ، وفق سير أحداث الثورة و بالتالي فهي كانت مصوبة بإتجاه رصد المعلومة و توظيفها بما يتناسب و إستراتيجية الثورة ، في مقابل التصدي للإعلام الفرنسي ، الذي كانت « تغذيه نوازع القمع و الإرهاب »⁽²⁵⁾ و تقويض التعبئة الأوروبية ضد أبناء الجزائر .

إلى جانب جريدة « المجاهد » فإن الإذاعة المسموعة من خلال « صوت الجزائر المكافحة » توجهت إلى الشريحة العامة من المجتمع الجزائري ، ابتداء من 1 جانفي 1957⁽²⁶⁾ ، و كانت ناطقا رسميا للثورة ، تناولت شرح الكفاح باستعمال العربية ، القبائلية و الفرنسية بهدف التعبئة و التوحيد ، و من ثمة فإن المادة التي حملتها هذه الإذاعة تمحورت حول سير الأحداث التي لها علاقة بالتطور النوعي في الثورة.

4-1 . سياق الأدب وأغراضه :

لم يتجه الأوروبيون نحو إكتشاف الجزائريين إلا بعدما اصطدموا بمقاومة شرسة ، و هكذا ظهر الأدب الإستعماري مهتما بالجزائري باعتباره « موضوع تحقيق »⁽²⁷⁾ ، عكسته الكتابات المتنوعة للضباط الفرنسيين على العموم ، حيث تركز الإهتمام عندهم على الدين الإسلامي باعتباره يشكل الروح التي تتغذى منه الزوايا ومنبع المقاومة ، و محرك الثورات ، و لهذا الغرض ، أصدر النقيب الفرنسي « دونوفو » سنة 1845 كتابا بعنوان « الأخوان » ، و هو تعبير عن اتجاه الإستعمار نحو التحري و إكتشاف عمق المجتمع الجزائري ، و بعد سقوط الإمبراطورية الثانية 1870 ، وانسجاما مع سياسة الاحتلال ، تحول نهج الكتابات إلى رجال القانون و العسكريين الذين كيفوا نتائج أعمالهم وفق مقتضيات سياسة الاحتلال.

بعدما توسع الإستعمار في مناطق الجنوب، مع نهاية القرن التاسع عشر، ظهرت أقلام أوروبية تهتم بالأدب الأهلي، وتسعى لاستكشاف المجتمع الجزائري في محاولة لفهم شخصيته بما يتيح تفسير سلوكاته وضبطها، ولم يخرج اهتمام الكتابات الأدبية الإستعمارية بالجزائر في الفترة ما بين 1900 إلى 1954 عما يوفر معطيات عن عداؤه وثورته، أو ما يحقق المباهات بانتصارات الإستعمار، على أن الفترة الممتدة من 1920 - 1954 إتسمت بالدراسات الأدبية الإجتماعية، و تضمنت شهادات و شروحات للأيديولوجية الإستعمارية، خوفا على مصير المستعمرة من طرف تجاوزات بعض المعمرين، و الواقع أن الأدب الإستعماري بشكل عام كان يتحرى دعم سياسة الإستيطان، لذلك فقد انحصر ضمن المواضيع التي تحقق هذه الغاية و لو على حساب الحقائق الفعلية التي كان يعيشها المجتمع الجزائري، و من ثمة فالاعتماد على هذه الأدبيات في الكتابات التاريخية لا يخلو من المغالطات، و هو يحتاج إلى عملية تفكيك و غربلة لكافة الحثيات و إعادة البناء وفق منهج تحليلي نقدي،

و على صعيد آخر فإن الأدب الجزائري من نثر و شعر بدأ يأخذ مكانته تدريجيا في نهاية الفترة الإستعمارية، فالقصة أصبحت شيئا فشيئا وسيلة للتعبير عن الذات و معارضة الإستعمار، و قد مثلت النخبة المتخرجة من المدارس الفرنسية، الجيل الأول من الأدباء، الذين حملوا " مفهوم القومية " التي لا تتفاعل، إلا في نطاق الأيديولوجية الإستعمارية (28)، و قد مثل هذه الفئة في ميدان الأدب، كل من بن شريف، و الحاج حمو، و ولد الشيخ، و زناتي، و في الشعر، كل من القبي، و طالبي و غيرهم.

و في الثلاثينات من القرن العشرين، ظهرت محاولات أدبية تركزت حول الدعوة إلى الإندماج و تحقيق نوع من المساواة، حيث نشرت أعمال كل من فرحات عباس « الشاب الجزائري » سنة 1931، و سعيد فاسي « الجزائر تحت حكم فرنسا » سنة 1936، و محمد عزيز كسوس « الحقيقة حول التأزم الجزائري » سنة 1935، و رشيد زناتي « المشكل الجزائري كما يراه واحد من أهالي » سنة 1938، و جان عمروش « الرماد » سنة 1934، و « النجمة السرية » سنة 1937 (29)، وكانت أعمالهم تلك، تعبيرا عن خط سياسي يتوافق مع طموحهم الساعي إلى انجاح فكرة الإدماج والمساواة، و تأمين منا فح ضيقة.

لقد تأثرت الحركة الأدبية بتطور الحركة الوطنية، فالأفكار الثورية لحزب الشعب، و أطروحات جمعية العلماء المسلمين، تركت تأثيراتها على المضامين الأدبية لفترة الأربعينات، لذلك برز محمد الديب، عبر المقالات و التحقيقات التي نشرت، خاصة « الجزائر الجمهورية »، و كذا الرواية الثلاثية التي تعتبر أهم ما أنتج هذا الرجل، و التي ظهرت لأول مرة سنة 1952 (30)، و من جانب آخر برز مالك حداد كأحد المتمردين على الثقافة الفرنسية، و لم يكن يؤمن إلا بحقيقة الواقع الإستعماري الذي تميز بالقمع و الإضطهاد معبرا عن أفكاره من خلال كتابه « رصيف الأزهار لا يجيب »، و من جهة أخرى، إختار فرانس فانوف « المرتنيكي المولد و الفرنسي الجنسية، الجزائر وطنا و جبهة التحرير إطارا للتعبير عن أفكاره المعادية للإستعمار و العنصرية، و ساهم عبر كتاباته في « بشرة سوداء و أقنعة

بيضاء » من تشخيص طبيعة الإستعمار من الناحية الفلسفية ، و كتب في الشعرو النثر ، مسخرا كافة جهوده في خدمة الثورة ، و جسد مفدي زكرياء من جهته النموذج الحي للمثقف الحقيقي⁽³¹⁾ ، الذي قدم عبر نضاله في السياسة و الشعر عملا فاعلا في الواقع الثقافي .

إن هذه العينة من الأدبيات على إختلاف إتجاهاتها تأثرت بالواقع الإستعماري بشكل مباشر و رصدت عنه كما هائلا من الحثثيات و الوقائع غير أن هذا النوع من المصادر في الكتابة التاريخية يحتاج الى كفاءة علمية و معرفية متخصصة قادرة على تفجير النصوص و استخلاص النتائج وفق منهج إستقرائي و نقدي .

- تحديات كتابة تاريخ الجزائر في فترة الإستقلال

يقول شارل روبيرت أجيرون « و بمعنى آخر فإن تاريخ الجزائر المعاصر ، قد صمم كردة فعل على الروايات الاستعمارية ، التي كانت تحجب بشكل كامل تقريبا الشعب العربي البربري ، و تحتفظ بإسم الجزائريين فقط للأوروبيين في الجزائر »⁽³²⁾ ، و إن كان هذا القول يتسم بنوع من الصدق ، إلا انه لا يعكس الحقيقة كلها ، ذلك أن الروايات الاستعمارية لم يقتصر دورها في حجب الفترة المعاصرة لتاريخ الجزائر وحدها ، بل تعد ليشمل كافة مراحل الحقب التاريخية ، و من هنا فإن الدراسات التاريخية في الجزائر عرفت إنطلاقة محتشمة بعد استرجاع السيادة سنة 1962 ، و تركزت اهتماماتها أساسا بالموضوعات التي تخص التاريخ الوطني الحديث و المعاصر ، و كان على المؤرخين و الباحثين استكمال مشروع تحرير كتابة تاريخ الجزائر من قيود مدرسة التاريخ الإستعماري « التي تحمل طابعا إيديولوجيا بالدرجة الأولى قبل الصفة العلمية »⁽³³⁾ ، و القيام بحوصلة شاملة لهذه التركة الفكرية و تقييمها ، لكن الشروط الموضوعية ، تستوجب توفير الإمكانيات البشرية و الوسائل المادية ، لبلوغ هذه الغاية .

2-1- الكتابات التاريخية الرسمية :

و نعني بها الكتابة التاريخية الصادرة عن المؤسسات الرسمية للدولة من رئاسة الجمهورية ، الحكومة أو وزارة المجاهدين و الكتابات الجامعية الأكاديمية ، و التي يكون فيها البحث قائما على قواعد المنهج التاريخي العلمي ، فقد بات ينظر لكتابة التاريخ منذ 1962 ، على أنه قضية دولة ، و هو ما تأكد من خلال النصوص الأيديولوجية الأساسية لبرنامج طرابلس 1962 ، و الميثاق الوطني 1964 ، 1976 و 1986 ، حيث ورد في هذا الأخير « أن التاريخ هو ذاكرة الأمة الجماعية ، و هذا يجعل العناية به ضرورة ثورية تتصل إتصالا عميقا بالمسعى العام للثورة الجزائرية الذي ما فتئ يرمي إلى تخليصه من مظاهر التحريف والتشويه و التزييف التي لحقت به على أيد مؤرخي المدرسة الإستعمارية »⁽³⁴⁾ ، و مع ذلك ، لم تكن هذه الإرادة في تخليص كتابة التاريخ ، كافية لإحداث القطيعة مع المؤرخين و المناهج الفرنسية ، ففي خلال الخمسة عشرة سنة التي أعقبت

الإستقلال ، ذلك تعليم التاريخ في جامعة الجزائر ، مكفولا بالأساتذة الفرنسيين المتعاونين ، و كان هؤلاء يعتمدون في عملهم على المناهج و الطرائق الفرنسية ، في حين بقي بعض الباحثين من المؤرخين الجزائريين الإحترافيين على اتصال بالدوائر الجامعية في فرنسا ، و هو الحال بالنسبة للمؤرخ محفوظ قداش ، الذي كتب أطروحته حول تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية « Histoire de nationalisme Algérien » ، و تحت إشراف « اكسافيي ياكونو » « Yacono Xavier » ، إذ تناول تحليل القضية الوطنية ، و كذا الحياة السياسية الجزائرية المسلمة ما بين 1919 – 1951 ، وقد مثلت هذه الدراسة عملا أكاديميا ، إستفاد من المنهج و التوثيق الفرنسيين ، وقد عكست الملاحق التي وردت في آخر الدراسة ، المستوى الرفيع للبحث ، ب 52 ملحقا⁽³⁵⁾ ، و اختار من جانب آخر ، بعض من المؤرخين ، العمل و العيش بفرنسا على غرار محمد حربي الذي تخصص في تاريخ الثورة الجزائرية .

لقد ظهرت أولى الأعمال المعمقة عن تاريخ الجزائر في الفترة الإستعمارية سنة 1965 ، عبر كتاب مصطفى الأشرف « الجزائر الأمة و المجتمع » ، « société et nation Algérie » ، والذي يعد مقتبسا من مقالاته التي ظهرت بين 1954 – 1964 وقد قدمت رؤية جديدة عن موضوع تاريخ المجتمع الجزائري ، حيث تناول تاريخ الجزائر من خلال دور الفلاحين في الحفاظ على مقومات الأمة الجزائرية ، و لم يتردد منذ البداية بالتصريح عبر مدخل الدراسة بكونه يتحرى الوصول إلى الموضوعية و يتجرد من « الشوفينية »⁽³⁶⁾ ، كما نجم على صعيد آخر ، و بعيدا عن الدوائر الجامعية الفرنسية ، المؤرخ أبو القاسم سعد الله ، في تقديم كتابه « تطور الحركة الوطنية في الجزائر » « Algérie en nationalisme du montée La » ، أين كشف الكاتب عبر مدخل الدراسة على أن العرض « لا يتناول معالجة السيطرة الفرنسية في الجزائر ، و لكنه يعالج ردود الفعل الجزائرية لهذه السيطرة »⁽³⁷⁾ ، ولأول مرة في تاريخ الجزائر بعد الإستقلال ، تقدم دراسة عن المجتمع الجزائري وفق منهج علمي ، و بمعزل عن اللغة التاريخية لمدرسة التاريخ الإستعماري .

إن ظهور هذه الأعمال على قلتها ، قد أثر على أطر معالجة التاريخ للفترة الإستعمارية حتى في فرنسا نفسها ، ذلك أن هذه الكتابات أصبحت مشوبة بالريبة و الحذر ، عند بعض المؤرخين الفرنسيين الذين أعادوا النظر في طريقة المقاربة بالروايات التاريخية الإستعمارية ، فشارك روبيرت أجيرون « Ageron Robert Charles » في كتابه الصادر سنة 1963 « تاريخ الجزائر المعاصرة » ، و الذي حاول من خلاله إظهار تعاطفه مع القضية الجزائرية ، عندما ذكر في مدخل هذه الدراسة ، بأن مؤرخا لا يكرس كل وقته لدراسة بلد ما أو شعب آخر ، بدون دافع قوي ... فهل يمكنني أن أضيف إلى ذلك ، أنه من أجل محاولة التفهم و التحدث عن تاريخ شعب ، يقتضي أولا أن نحبه ، غير أن هذا الحب الذي يتحدث عنه الكاتب ، لم يستطع تخليصه من مستنقع المصطلحات الرائجة في مدرسة التاريخ الإستعماري ، إذ استخدم الكاتب عبارات ومصطلحات تصب في نفس الاتجاه الكلاسيكي

للكتابات التاريخية للفترة الاستعمارية ، كمصطلحات القراصنة ، والسيطرة التركية ، والقرون المظلمة الطويلة من التاريخ العربي الإسلامي ، و البربري ، وإحتلال المشرق في القرنين السابع و الثامن الميلادي ، وحمل النصف أوروبيين لفكرة السيادة ” أي الأتراك ” ، الوجود الفرنسي ، و غيرها من العبارات التي تحمل نزعة إيديولوجية بحثة ، وإستمر هذا التوجه في دراسات نفس المؤلف ككتاب ” الجزائريون المسلمون و فرنسا ” الصادر بباريس 1968(38)، وان كانت بأقل حدة من السابقة ، إذ عدل الكاتب بعض المصطلحات ، عندما بات يتحدث عن عبارة الغزو في قوله ” منذ السنوات الأولى للغزو ” و كذا ” الشعب المغزو ”.

سجلت الجزائر سنة 1966 ، سياسة تعريب تدريس التاريخ ، وظهرت تداعيات هذه السياسة على فرق البحث في مجال الدراسات التاريخية ، ذلك أن عددا من المؤرخين المكونين باللغة الفرنسية وجدوا صعوبة في التأقلم و التكيف مع الوضع الجديد ، فأنحصر دور البعض منهم ، في حين اتجه البعض الآخر لمواصلة نشاطه في معاهد الدراسات الإجتماعية و السياسية ، و من جهة أخرى ، فقد انقطعت صلة كثير من المعربين بالدوائر الجامعية الفرنسية ، و بالمصادر المكتوبة و مناهج البحث الأكاديمي المعتمد في فرنسا ، وضيعوا بذلك فرصة الإستفادة من تجربة كتابات مدرسة التاريخ الأوروبي ، ” فإذا تجاوزنا المنهج و الآفاق للدراسات التاريخية التي أنتجتها مدرسة التاريخ الإستعماري فإنه بإمكاننا البحث في الرصيد الذي لا يستهان به من الأبحاث حول الإستيطان الأوروبي في البلاد ، و عن الإحتلال و مراحله و تطور مؤسساته ، و بإختصار عن كل الجوانب التي تخص الوجود الأجنبي سواء في شكله العسكري أو السياسي أو الإداري أو في شكله الإستيطاني الثقافي ” (39)، و تضاف هذه العقبة إلى جملة المتاعب التي عرفتتها الكتابة التاريخية في المرحلة الأولى من الإستقلال .

قام محي الدين جندر ، في كتابه الصادر سنة 1970 بعنوان « تمهيد لتاريخ الجزائر » « Introduction à l'histoire de l'Algérie » ، بتعميق إشكالية كتابة و بناء تاريخ وطني منذ الجذور ، حيث نبه إلى وجود عدد معتبر من المؤلفات التاريخية لإفريقيا الشمالية بوجه عام و الجزائر بوجه خاص ، غير أنها لا تعالج إلا مجالا أو حدثا مخصصا لهذا التاريخ ” و لفترة محددة ” (40) ، كما أشار إلى وجود مؤلفين فقط لدراسة شاملة حول تاريخ الجزائر ، الأول بالفرنسية لشارل أندري جوليان « Julien André Charles » « تاريخ إفريقيا الشمالية » « L'histoire du nord de l'Afrique » ، و الثاني باللغة العربية « تاريخ الجزائر العام » لعبد الرحمن الجيلالي ، و نبه إلى وجود تدوين للأبعاد التاريخية ، الاقتصادية ، العسكرية و الأدبية غير أنها تفتقر لخط الوصل بينها ، ذلك أننا لا نميز كما يسميه خط المقود « conducteur fil le » ، للأحداث التاريخية فيما بينها عند انتقالنا من حقبة إلى أخرى ، و نوه بأعمال المؤرخين أبو القاسم سعد الله ، و محفوظ قداش ، اللذان أسسا حسبهما ، لمناهج تفسيرية للأحداث ، بما ينسجم و انشغالات المرحلة التاريخية التي كتبوا فيها ، كما دعا إلى احتضان هذا الموروث الثقافي ، ذلك أن كل واحد منهما يحمل جزءا من الحقيقة إما في أبعادها

و دعا محي الدين جندر ،إلى نظرة جديدة للمعالجة التاريخية بقوله « إن المهمة هي التفكير بدءا في معالجة التاريخ باعتباره موضوعا قبل اعتباره مادة »⁽⁴¹⁾، و من ثمة فإن هذا الباحث قدم رؤية جديدة في منهجية كتابة تاريخ الجزائر من خلال مراجعته وفق أسس علمية وبالمقابل أشاد بمجهودات التطور العام للكتابة التاريخية في الجزائر .

إن الإشكالية التي ناقشها محي الدين جندر كانت في غاية الأهمية ، ذلك أن الفجوات التي ميزت الكتابات التاريخية عن الجزائر استمرت عبر الإنتاج التاريخي في الجزائر ، و هو ما كشف عنه التقرير التقييمي لواقع الدراسات التاريخية منذ 1962 إلى 1987، والذي أعده فوج العمل الخاص بالدراسات التاريخية في إطار اللجنة الوطنية المكلفة بإعداد حصيلة الإنتاج العلمي و الثقافي في الجزائر منذ 1962 ، و التي خلصت في نتائجها إلى وجود « الاختلال في توزيع الدراسات عبر مختلف العصور⁽⁴²⁾ »، الأمر الذي خلف وراءه فراغات في الذاكرة التاريخية ، كما كشف عن قلة عدد العدد المنتجين في ميدان الدراسات التاريخية

و الذي لا يتعدى 60 باحثا ضمن مجتمع يقدر ب 23 م ن سنة 1987 ، حيث 55 % دون 20 سنة، في الوقت الذي أشار فيه إلى تأثير مدرسة التاريخ الاستعماري على الكتابات التاريخية في الجزائر، إلى درجة أن بعضها يمثل استمرارية لنهجها.

1-2 الأرشفة والتوثيق :

تمثل الكتابة التاريخية عملية متجددة يمارسها كل جيل بالقدرة العقلية التي وصلها و الوثائق المتوفرة لديه ، و المستجدات الحضارية التي يحيط بها »⁽⁴³⁾ ، غير أن أكبر معضلة واجهت الباحثين في مجال الدراسات التاريخية مسألة الأرشفة ، فإذا كان المؤرخ يفتقد اليوم إلى ببليوغرافية الرسائل و الدراسات القاعدية من مجلات و أعمال الملتقيات ، فكيف بالأرشفة الذي يمثل أداة في غاية الأهمية، و خاصة المتعلقة بالفترة الإستعمارية ، فالشعوب التي تعرضت للإحتلال لم يكن بمقدورها الكتابة عن تجربتها ولا عن حركة المقاومة ، و حتى من كتب منهم ضاع إما على يد الجيش ، أو الشرطة أو حتى على أيادي المعنيين أنفسهم أو عائلاتهم خشية من الإضطهاد الإستعماري .

يشمل الأرشفة كافة الوثائق المدونة من مراسلات وأوامر و قرارات و معاهدات و اتفاقيات و تقارير و مذكرات شخصية و يوميات و أشعار و خطابات و مقالات و صحف و نتائج التحقيقات السابقة و الشهادات و غيرها من الآثار المادية، و يتعلق النوع الأول من الأرشفة بالكيان الوطني و رموزه و معالمه ، بينما النوع الثاني فبالترسجيات المدونة لقادة الإحتلال و إدارته .

وضع الفرنسيون أيديهم مع بداية الإحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830 « ، على جميع ممتلكات الدولة من عقار و أموال و وثائق »⁽⁴⁴⁾ ، فالحملة خططت و نفذت عدة عمليات متزامنة و متواصلة ، كالسطو على الأرض و تحطيم بنية المجتمع و استئصال النخب المثقفة بالقتل و التشريد و « سرقة الذاكرة الوطنية لبتز الإستمرارية التاريخية للكيان الجزائري »⁽⁴⁵⁾ ، و كانت تلك أخطر عملية هدم و تخريب لكيان الدولة الجزائرية و رموزها ، و لا يخفى أن المدرسة الإستشراقية في الجزائر قد وضعت يدها على كم هام من المخطوطات و الوثائق الوطنية التي نجعل وجهتها ، فبعد إسترجاع الجزائر لسيادتها سنة 1962 ، لم يكن بمقدور الباحثين و المؤرخين الجزائريين الإطلاع على الوثائق الخاصة بتاريخ الجزائر ، و هو الأمر الذي كان ممكنا بالنسبة للمؤرخين الذين جندوا لخدمة النظام الإستعماري ، و « قد كان مصير هذه الوثائق السلب و النهب على نطاق واسع ، و النقل بعشرات الأطنان إلى فرنسا بناء على طلب فئة من هؤلاء المؤرخين ، و كان ذلك عقب وقف إطلاق النار مباشرة في شهر مارس 1962 »⁽⁴⁶⁾ .

كان في الجزائر أكثر من خمسة عشر مركز توثيق معتبر ، إلى جانب المكتبة الوطنية و مكتبة الحكومة العامة ، و كذا مخازن الأرشيف القديمة و المعاصرة ، غير أنها و بطريقة منظمة تم تحويلها إلى مخازن بعض القصور في فرنسا ، حيث تم نقل جزء مهم منها ، إلى محفوظات ما وراء البحار « آكس أن بروفانس » ، و إلى أرشيف وزارة الحربية بفرنسا « باريس » ، و إلى الغرفة التجارية بمرسيليا ، و الأرشيف الوطني الفرنسي ، و قد تمت هذه العملية على يد الضباط الفرنسيين ، وبتواطئ و توجيه و قيادة المؤرخ الإستعماري « بيار بوايي » Pierre Boyer⁽⁴⁷⁾ . و تم بالمقابل السطو على مركز الوثائق بتييزي وزو ، والذي يعد من أغنى مراكز الجزائر من حيث الأرشيف المتعلق بالانتفاضة الكبرى سنة 1871 ، و أحداث مرحلة الثورة التحريرية ، و يكون هذا العمل بذلك ، آخر أكبر جريمة عظمى « Le majeur crime dernier » « للإحتلال الفرنسي في الجزائر على حد تعبير مصطفى الأشرف .

كان أرشيف الثورة الخاص بمختلف جهات الوطن و بالخارج ، مجمعا أثناء الثورة في قاعدة ديدوش مراد في ليبيا ، حيث كان عمل التنسيق و الإستغلال ، و كانت توجه التقارير و الدراسات المنجزة إلى مختلف جهات الحكم من نفس المكان ، و كانت حوصلة الأعمال من تقارير و مداولات مجلس الثورة للداخل و الخارج موضوعة في صناديق فولاذية ، في الفترة ما بين وقف إطلاق النار 19 مارس 1962 و إجراء الإستفتاء ، و كان أول إتفاق لترحيل قاعدة ديدوش مراد بكافة تجهيزاتها و عتادها و جنودها و إداراتها و أرشيفها نحو الجزائر ، قد تم بين بن بلة و بوصوف ، غير أن ترجمة هذا الاتفاق لم يتجسد ، إلا على يد الرئيس هواري بومدين ، الذي أمر بترحيل قاعدة ديدوش مراد نحو قاعدة « أركول » بالولاية الخامسة ، و استقر الرأي على تحويل الأرشيفات إلى قصر الحكومة ، حيث خزنت بالطوابق تحت الأرضية ، و لم تعرف فترة حكم أحمد بن بلة إهتماما بهذا الأرشيف حتى

مجيئاً حكم هواري بومدين بعد 19 جوان 1965 ، حيث أمر بنقل وإعادة جرد كافة الأرشيفات ، في حضور مدير من رئاسة الجمهورية «تازير باشا» ، و وضمت هذه الأرشيفات الأشرطة المغناطيسية و التداخلات المسجلة لأعضاء مجلس الثورة ، و بعد عملية الجرد نقلت الأرشيفات إلى وزارة الدفاع الوطني ⁽⁴⁸⁾ ، حيث وضعت بحوزة الأمن العسكري لمصلحة التوثيق ، ورتبت إلى وثائق عسكرية و إقتصادية و غيرها .

طلب المؤرخون الجزائريون في عهد الرئيس الشاذلي بن جديد ، بأرشف الثورة فتم تسليم الأرشيفات ذات الصبغة السياسية و الإقتصادية إلى المركز الوطني للأرشفة « أما الأرشيفات ذات الطابع العسكري فاحتفظوا بها » ⁽⁴⁹⁾ ولا يخفى أن منظمة الجيش العسكري السري « OAS » ، قد إستولت على مكتبة جامعة الجزائر ، التي كانت تحتوي على « 400 ألف مجلد » ⁽⁵⁰⁾ ، في الوقت الذي كانت فيه الثورة مشغولة بمشاكل أخرى في مارس 1962 .

إن هذه الوضعية الخطيرة لحالة الوثائق دفعت بالحكومة الجزائرية في الفترة ما بين 1972 إلى 1974 إلى القيام بحملات لجمع الأرشيف من أجل كتابة تاريخ الثورة ، و هذا عبر نشاط مختلف الهياكل التابعة للدراسات التاريخية و ظهرت محاولات في هذا الإتجاه ، كان أبرزها تجربة المكتبة الوطنية الجزائرية «التاريخ بواسطة الشريط» ، التي انطلقت منذ 1971 في جمع المعلومات و الأخبار عن الأشخاص الذين عاشوا مرحلة الثورة ، و تمكنت من عرض تجربتها هذه على يد مدير المكتبة الوطنية وقتذاك «محمود بوعياذ» في الملتقى الذي نظمه المركز الوطني للبحث العلمي بفرنسا ما بين 11-9 أفريل 1974 ⁽⁵¹⁾ ، تحت عنوان « مصادر التاريخ العربي » ، و التي لقيت إستحسانا من طرف المنظمين .

رغم أهمية الأرشيف ، باعتباره قضية مشتركة للشعوب الإفريقية التي تعرضت للسيطرة الاستعمارية الاستيطانية ، إلا أن الجزائر لم تشارك عبر ممثل لها في الملتقى الثامن المنظم تحت إشراف منظمة «اليونيسكو» التابعة للمنظمة الأممية ، المنعقد «بواقادوقو» من 17 الى 22 ماي 1979 تحت عنوان « منهجية التاريخ المعاصر لإفريقيا » ⁽⁵²⁾

على ما تمثل هذه اللقاءات في هذا المستوى من مناسبة لتحسيس بالقضايا المتعلقة بمناهج و أدوات كتابة التاريخ في الدول التي تسعى لتحرير تاريخها من الغموض و التشويه و كذا آثار الكتابات الاستعمارية .

هكذا استمر هذا التيار ، لسد الفراغ الذي يعانيه الباحثون ، عبر سلسلة الملتقيات الفكرية و التاريخية ، ففي الفترة من 20 إلى 22 أفريل 1981 إنعقد الملتقى الدولي حول المصادر الإسبانية لتاريخ الجزائر ، و في أكتوبر من نفس السنة ، إنعقد الملتقى الوطني الأول لكتابة تاريخ الثورة بقصر الأمم من 28 إلى 30 أكتوبر ، و الذي سلط الضوء على الكتابات التي تناولت تاريخ الثورة على وجه الخصوص ، بالعرض و التصنيف و التقييم ، وقد كشفت خلاصة الدراسة التي قام بها يحي بوعزيز في هذا الإطار (53) ، عن التخلف الذي تعرفه الكتابات التاريخية ،

كتابخ تاريخ الجزائر المعاصر بين الواقع والتحديات

المتعلقة بتاريخ الثورة من الناحية العلمية والموضوعية ، فعل ضوء نماذج الكتب التي قدمت كعينات، تبين أن الكتابات الفرنسية تميزت بعدم الاختصاص ، و القصور في الإلمام المنظم و المتسلسل للمواضيع ، و كذا التحيز للمقاربات الفرنسية في تفسير الأحداث، فضلا عن الإتفاق على تجريم الثورة ،من خلال نعتها بأسماء .و من ثمة ، فإن الملتقى ،قد أثار ضمنا مشكلة التوثيق التي تمثل حجر الزاوية في مراجعة إنتاج مدرسة التاريخ الإستعماري .

لم يأت في الملتقى الدولي الجزائري الأول حول موضوع الثورة الجزائرية و صداها في العالم ، المنعقد بتاريخ 24 إلى 28 نوفمبر 1984 ، و على أهميته، من حيث عدد و مستوى الأساتذة و الباحثين في مجال الدراسات التاريخية ، و طبيعته الدولية ، على تناول موضوع الأرشيف إلا عرضيا ، و بتسمية أدبية ، تحت عنوان ” رأي في جمع مادة الثورة“(54) .

وفي الملتقى الوطني لمعهد التاريخ ،حول موضوع المدرسة الغربية و قضايا التاريخ الجزائري المنعقد أيام 10 - 11 و 12 مارس 1987 والذي ضم نخبة من أساتذة معهد التاريخ بالجزائر العاصمة و قسنطينة و وهران ، أين قام المتدخلون بعرض ، مجموعة من الأبحاث والدراسات في القضايا التاريخية ذات العلاقة بالمدرسة الغربية ، و محاولة إبراز أهمية الأرشيفات و الوثائق التاريخية في إعادة النظر في كتابة تاريخ الجزائر ، و مع أهمية و حيوية هذا الموضوع ، إلا أن الملتقى لم يخلص في هذا الباب ، إلا إلى استصدار توصية واحدة ، تضمنت تسهيل عملية جلب الوثائق الجزائرية من الخارج عن طريق تسهيل السفر و التصوير .

خاتمة

هكذا يحتاج الأرشيف ،إضافة إلى هذه الوضعية المتعثرة التي عرفها، و الغموض الذي يكتنفه ، إلى كفاءات متخصصة منهجيا و علميا ، قادرة على استعادته أولا ، ثم البحث و التنقيب فيه ثانيا ، بعيدا عن أية عقيدة أيديولوجية ، و ملتزمة بالصرامة العلمية والموضوعية، ويبقى الاهتمام بالتاريخ الوطني في ظل هذه الإشكالات ،يشكل عقبة ، ويجعلنا نقدر صعوبة التعاطي مع كتابة تاريخية موضوعية، ويزيد في حجم المسؤولية العلمية الملقاة على الباحث في التاريخ ، ولذلك، يتعين علينا اخذ الحيطة والتحري فيما نكتب ،تجنبنا لتكريس الخطأ، وترشيدها للجهد المبذول.

الهوامش

1 - ابن خلدون ، المقدمة، دار القلم ببيروت ، 1979. ص 09

2- نفسه : ص 09 .

3 -Med Cherif Sahli 'Décoloniser l'histoire « l'Algérie accuse. le complot contre les peuples africain ». Préface de Mustafa Lachraf ' Edition ENAP'. p. 123.

4-Ibid .p126.

5- أبو القاسم سعد الله ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، . بيروت-لبنان ، ط 1 ، 1996 ، ج 4 ، ص 41 .
نفسه : ص 43 .

6- أندري برنيان ، أندري نوتشي ، إيف لاکوست ، الجزائر بين الماضي والحاضر ، ترجمة أسطبولي رابح و منصف عاشور ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1984 ، ص 423 .

7-Sophie Dulucq et Colette Zytnicki ' Décoloniser l'histoire ? « De l'histoire coloniale » aux histoires nationales en Amérique latine et en Afrique. XIXème-XXème siècles ». Paris publication de la société Française d'histoire d'outre-mer'.2003' p101

8- أبو القاسم سعد الله ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والاشهار ، الجزائر ، 1978 ، ج 1 ، ص 25 .

9-Med Cherif Sahli.op.cit ; p 209

10- شارك روبيرت أجيروف ، تاريخ الجزائر المعاصرة . ترجمة عيسى عصفور ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر . ط 2 . 1982 . ص 141 .

11-Mahfoud Kaddache-Djillali Sari .L'Algérie pérennité et résistances '(1830-1962)OPU' Alger '2002 ' .p262

12- .عبد الرحمف بن محمد الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1995 ص 2 .

13- Med Chérif Sahli .op.cit ; p22 .

14- إبراهيم مياسي ، دور الأرشيفات والوثائق التاريخية في كتابة تاريخ الجزائر ، مجلة الدراسات التاريخية ، العدد 5 ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، 1988 ، ص 214 .

15- نفسه، ص 217

16- توران ايفون، محاضرات وتعقيبات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامي ، منشورات وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية ، المجلد الأول . ط ، 1973 ، ص 250 .

17-Med Guenaneche 'Le mouvement d'indépendance en Algérie entre les deux guerres 1939 - 1919 ' traduit de l'arabe par 'Sid Ahmed Bouali' ENAG 'Alger' 1990' p 13.

18- عواطف عبد الرحمن ، الصحافة العربية في الجزائر ، دراسة تحليلية لصحافة الثورة الجزائرية 1954 - 1962 م المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1985 ، ص 25 .

19-Abou Al kacem Saad Allah' La montée du nationalisme algérien' EN AG' Alger 1985. p 101.

20- عواطف عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص 29 .

21- تولى إدارة هذه الجريدة عمر راسم ياسم مستعار « ابن المنصور الصنهاجي » .

22- رابح تركي، الشيخ عبد الحميد ابن باديس رائد الإصلاح الإسلامي و التربية في الجزائر ، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار ، الجزائر ، 2001 ، ص 144.

23- أحمد حمدي، الثورة الجزائرية و الإعلام ، «دراسة في الإعلام الثوري »، ديوان المطبوعات الجامعية 1990 . ص 148.

24 - نفسه : ص 60 .

24 APS .ECLATS DE NOVEMBRE 'Des hommes dans la révolution' ENAP' Edition' 1987' p 159

25 - مسعودة يحيوي، الجزائر من خلال المنظار الاستعماري، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 7، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، 1993، ص 157

26 نفسه ، ص 158

27 -Mahfoud Kaddache - Djillali Sari'op.cit 'P273

- 28-العربي الزبيري، المثقفون الجزائريون والثورة، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار، الجزائر، 1995، ص 99 ..
- 29 - نفسه، ص 101
- 30 - نفسه، ص 33
- 31 - شارل روبيرت أجيرون، مرجع سابق، ص 7
- 32-جمال قنان، مدرسة التاريخ الاستعماري بين الايديولوجية والموضوعية حول بعض قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 5، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1988، ص 130.
- 33 - الميثاق الوطني، المؤسسة الوطنية للصحافة، الجزائر، 1988، ص 196
- 34 Mahfoud Kaddache 'Histoire du nationalisme Algérien . question nationale et politique Algérien 1951 – 1919 . SNED Alger T 1 et 2. 1981. PP 887 – 990
- 35- Mostefa Lachraf ' L'Algérie nation et société. SNED Alger. 2eme Edition. P 8.
- 36- Abou Al kacem Saad Allah op.cit'p5
- 37 CH-R-Ageron 'les algériens musulmans et la France 1871-1919- puf' 1968't1'p201
- 38-جمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، منشورات المركز الوطني للمجاهد، الجزائر، 1994، ص 17.
- 39 Mahieddine Djender' Introduction a L'histoire de L'Algérie' ENAP '1991'p185
- 40 -Ibid'p8
- 41 - جمال قنان ،مرجع سابق، ص 320
- 42- سعد الله ،مرجع سابق، ص 7
- 43- قنان ، مرجع سابق ، ص 114
- 44- محمد العربي ولد خليفة ، الاحتلال الاستيطاني للجزائر، مقاربة للتاريخ الاجتماعي والثقافي ،ثالثة للطباعة، الجزائر، 2005، ص 22
- 45- مصطفى الاشرف، الجزائر الأمة والمجتمع ،ترجمة ،حنفي بن عيسى ، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر، 1983، ص 40

46 Mostefa Lachraf 'op.cit'p216.

47- كلمة السيد معاوية . التسليح و المواصلات أثناء الثورة التحريرية 1956 - 1962 ، منشورات وزارة المجاهدين. م و د ب في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954 ، ص 154 .

48 - نفسه، ص 154

49 Mostafa Lachraf ' Ecrit didactiques sur la culture ' l'histoire et la société en Algerie' EAP ' 1er S. 1988' P 216 .

50-Mahmoud Bouayed' L'histoire par la bande' Publication de la BN . Notes et documents 1. SNED Alger 1974. P 12

51-La Méthodologie De L'histoire De L'Afrique . Etudes Et Documents'. publié en 1984 par l'ONU. Imprimerie des presses universitaires de France. Unesco 1984'p8.

52- يحيى بوعزيز ،تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية و الدولية، دار المنشورات الجامعية ، 1999، ص3

53-CNDH. Le Retentissement De La Révolution Algérienne. colloque international d'Alger 24- 28 Novembre 1984. ENAL. P 118 .